العرب
الأحد 2020/01/19
السنة 42 العدد 11591

نظام التفاهة العالمي يسود الكوكب

في العصر الاستهلاكي يُنحّى الطموحون ذوو المعايير العالية لصالح الباحثين عن النجاح السهل

حالة من التناقص العجيب تَصِفُ هذا العصر الذي نعيش فيه، فعلى الرغم من هيمنة التكنولوجيا، على كافة مجرياته، حتى فاقت الثورة التكنولوجية أو ما عرفت بالثورة الرابعة، ثورة كوبرنيك، فإن ثمة تفاهة وسذاجة في مَن يخوّل لهم حكم هذا العالم. فالسِّمة الرئيسيّة لهذا العصر إن كان يوصف بعصر التكنولوجيا، أنه على المقابل يمكن وصف نظامه بالتفاهة، وسيطرة التافهين على مقاليد السُّلْطة. ما أسباب هذا التناقض، ومن أين جاءت التفاهة؟ وما هي سماتها؟ هذه الأسئلة وغيرها كان على الفلسفة أن تُفسِّرَها. وقد اضطلع بالأمر أستاذ الفلسفة في جامعة كيبك آلان دونو فرصد سمات هذا العصر، ولخَصَّها بكلمة واحدة إنه "نظام التفاهة" وقد قامت بترجمة الكتاب إلى العربيّة مشاعل عبدالعزيز الهاجري. والكتاب صادر عن دار سؤال 2020.

ممدوح فراج النابي
كاتب مصري

يتألّفُ الكتاب من مقدمة كبيرة نسبيًا أشبه بتعليق على الترجمة، تحدثت فيها المترجمة مشاعل الهاجري عن علاقتها بالكتاب، ودوافع الترجمة ومنهجها في الترجمة، ثمّ تطرقت إلى الأطروحات الكبرى للكتاب والتي لخصتها في سبع أطروحات هي: اللُّعبة، وخطاب التفاهة، والأكاديميا والتجارة والاقتصاد والثقافة، وقد شملت الصحافة والكتب والتليفزيون والشبكات الاجتماعية والفن، وأخيرًا السياسة.

> جوهر كفاءة الشخص التافه يتمثل في قدرته على التعرُّف على شخص تافه آخر، كما يَدْعُمُ التافهون بعضهم بعضًا. لا يجلسون خاملين؛ إنهم يؤمنون بأنهم يعرفون كيف يعملون بجهد

وختمت تعليقها بالهدف النهائي، وقد تمثّل في إسباغ التفاهة على كل شيء، حيث البهرجة والابتذل، والمبالغة في التفاصيل. وهذه المقدمة على طولها أشبه بمدخل مُهمٍّ لقراءة أفكار الكتاب، وبوصلة تقود القارئ إلى مقولاته الأساسيّة.

العالم لعبة

يبدأ المؤلف كتابه بتحذير مهمّ أشبه بنصيحة مُستقاة من تفهّمه لسياق الواقع، فيقول لقارئه عليك أن تتخفف أو تتخلّص من الكُتب المُعقدة، ولا تُغالي في إظهار الفخر أو الارتياح لأن هذا قد يُظهرك بمظهر المغرور. بل عندما تتحدّث عن نفسك خَفِّف إحساسك بذاتيتك، ويجب أن تكون للمرء أفكار رخوة، فلقد تغيَّرَ الزمن وتبوّأ التافهون موقع السّلطة. ثم يأخذنا في تعريفه لهذا التافه، فالتفاهة بصفة عامة حسب المعاجم الفرنسية تعني ما هو متوسط تمامًا.

أما جوهر كفاءة الشخص التافه فيتمثل في قدرته على التعرُّف على شخص تافه آخر، كما يَدْعُمُ التافهون بعضهم بعضًا. ويربط بين تقسيم العمل وتصنيعه، (أي يدوي وفكري) في ظهور السلطة التافهة. كما أن التافهين حسب رأيه، لا يجلسون خاملين؛ إنهم يؤمنون بأنهم يعرفون كيف يعملون بجهد.

في مقدمته لا يتوقف المؤلف عند استعراض معنى التفاهة، أو دلالتها، أو سمات مَن يتّسمُون بها، وإنما يتتبعُ حضور هذه المُفردة في المدوّنة الأدبيّة، على نحو ما وجد عند جان دي لابروبير، وهو أديب وكاتب ساخر، وبالمثل عند الروائي جوستاف فلوبير، حيث كانت ظاهرة مستنكرة. بل هناك مَن لاحظ التطوّر التدريجي للتفاهة إلى أنْ أصبحت نظامًا متكاملاً كما هي عند لورانس ج. بيتر وريموند هال. وبالمثل هي حاضرة عند عالم المنطق أليكسندر زينوفييف الذي كان واعيًا سلفًا بقدرة العمل المبهرج على أن يكون ذا قوة نفسية ذات قدرة على تشكيل العقول. ومن التطورات التي لاحقت هذا المفهوم أن نظام التفاهة الآن فقد معناه الذي كان يُلصق به في الماضي، على اعتبار أنه يشير إلى قوة الطبقة المتوسطة، إذ صار الآن يعني سيطرة الأشخاص التافهين. وينتهي إلى القول بأن التفاهة تُشجِّعُنا على الإغفاء بدلاً من التفكير. باختصار هي تحيلنا إلى أغبياء.

كل نشاط في الفضاء العام سياسة كان أو إعلاما أو أكاديميًا أو تجارة أو عملا نقابيا أو غير ذلك، صار أقرب لـ "لعبة" تلعبها الأطراف، ويعرفها الجميع رغم أن أحدًا لا يتكلم عنها. كما لا تحكمها قواعد مكتوبة لهذه اللعبة (فاللعب باتباع القواعد لا يكون إلا للضعفاء فقط) ولكنها تتمثّل أو ترد أو تُستشعر في انتماء إلى كيان كبير ما، تُستَبعد فيه القيم من الاعتبار، فيُختزل النّشاط المُتعلِّق به إلى مجرد حسابات مصالح تتعلّق بالربح والخسارة الماديين كالمال والثروة، أو المعنويين كالسُّمعة والشهرة والعلاقات الاجتماعية، وهو ما ينتهي بالجسد إلى الفساد بصورة بنيوية، وهو ما يترتب عنه فقدان الناس تدريجيًا اهتمامهم بالشأن العام، وتنحصر اهتماماتهم على فردياتهم الصَّغيرة. ويشمل لعب اللعبة المشاركة في بعض الطقوس الاحتفائية أو المجاملية.

قطعة فنية منسوبة إلى الفن الاستهلاكي

تسليع المعرفة

في نظام التفاهة يُنَحَّى الأشخاص الطموحون ذوو المعايير العالية لحساب أشخاص أقلّ منهم مرتبةً، يبحثون عن النجاح السهل، ومع الأسف عناصر الفئة الثانية هم مَن يديرون اللعبة، لأنّ أفرادها أقرب إلى ما تتطلّبه الطبيعة اليومية للحياة من التبسيط، ونبذ المجهود والقبول بكل ما هو كافٍ للحدود الدنيا. فعجز هؤلاء عن الارتفاع إلى المرتبة الأولى يجعلهم لا يَألُونَ جهدًا في أن ينحدر أصحاب الفئة الأولى إليهم، فكما يقول جمال الدين الأفغاني فـ"التسفّل أيسر من الترفّع". وثمة سبب آخر لانخراط الناس في اللّعبة، يكمُنُ في التبسيط، فالسّلوك السياسي مثلاً يسعى باستمرار إلى تبسيط الأوضاع الفرديّة المُعقدة إلى أقصى حدود التبسيط.

يرى آلان دونو أن نظام الخبير (أو الخبراء) يُمثّل النموذج المركزي للتفاهة وقد سبق أن وصفهم إدوارد سعيد في كتابه "صور المثقف" بأنهم "السلطة في داخل المجتمع الجماهيري" وهم العلة التي يواجهها المثقف الحقيقي حسب تعريف سعيد. فوظيفة الخبير تكون بمثابة تحويل الاعتبارات الأيديولوجية والأفكار الصوفية إلى عناصر معرفية ذات مظهر نقي. ولهذا لا يمكننا أن نتوقع منه أن يُقدِّم لنا مقترحًا قويًا أو أصيلاً. كما يشير المؤلف إلى التأثير السَّلْبي لهؤلاء الخبراء على الاقتصاد والأزمات الدورية، وقد وصفهم بأنهم أشخاص مُسرنَمون، وهو ما ينتج عنه وقوع انهيارات مفاجئة لأسواق المال. وهناك الخبراء المزيفون الذين يتقاضون رواتبهم مقابل ممارسة عاداتهم السيئة (الفساد والتدليس والتفاهة) من أجل إنقاذ الإوليغارشية (طبقة رجال المال التي تقوم بتسيير مقدرات الدولة من موارد).

يعيب آلان دونو على النظام الجامعي، وما أحدثه من أزمات مجتمعيّة كثيرة، فالأكاديميون وفقًا للصحافي الأميركي كريس هيدجيز هم المسؤولون عن عللنا الاجتماعية. حيث أنّهم متخصصون في مجالات معرفيّة فرعية متناهية الصغر، ومن ثمّ فهم فاقدون للقدرة على التفكير النقدي، بل ومهووسون بالتطوُّر الوظيفي، والحصول على درجات علميّة لأغراض الظهور الاجتماعي لا أكثر، كما أنّهم موالون إلى طبقات اجتماعيّة أقرب إلى القبائل. فمشكلة النظام الأكاديمي تتمثل في الحرص على الترقيات الشخصيّة ونظم المعلومات، وبمعنى آخر فجامعات النُّخب كما يسميها هيدجيز قامت بنبذ كل نقد ذاتي، كما أن أساتذة الجامعات بسبب تدنّي رواتبهم قاموا باستخدام طلبة الدراسات العليا كأدوات لخدمتهم.

كما أن ثمّة إشكالية أخرى لهذا النّظام الأكاديميّ، تتمثّل في تسليع المعرفة، فالجامعات صارت أحد مكونات جهاز اليومي الصّناعيّ المالي والأيديولوجيّ. حيث ثمّة نظام خضوع يربط الجامعة بعملائها الذين يشترون عقولها المنتجة بشكل دوري، وهو الأمر الذي كان يرفضه من قبل ماكس فيبر، مع أن الجامعة كانت تُغرق نفسها من خلال تسليم نفسها لإغراء العلاقات التجارية ذات الطبيعة الاختراقية، الفارق أن طلاب اليوم لم يعودوا مُستهلكين كما كانوا، بل صاروا هم أنفسهم سِلعًا، فالجامعة تَبيع ما تصنعه منهم إلى زبائنها الجدُد، وتحديدًا إلى الشركات وغيرها من المؤسسات المموّلة لهذه الجامعة. ومن ثمّ تأتي أهمية تصريح رئيس جامعة مونتريال عام 2011، بمكان حيث قال إن "العقول ينبغي أن تفصّل وفق احتياجات سوق العمل".

وقد أتاح فرض منح من قبل هذه الشركات للجامعات، أن تُمْلي من خلالها إرادتها على الجامعة، فالأساتذة والطلاب يعملون على المشروعات (أو الموضوعات) التي فرضتها هذه الشركات، ومن جانب آخر جعل الجامعة قابلة للتلاعب من قبل أي طرف على استعداد لتمويلها. وقد حذّر المفكّر الألماني جورج سميل بمصير الباحثين الذي يُوظّفون لخدمة الاقتصاد. فكما يقول على الفكر أن ينتج المعرفة، بغض النظر عن التكلفة وعن أثر هذه المعرفة في العالم. فالحقيقة أنّنا ابتعدنا عن عملية المعرفة، أي العملية التي نكتشف بمقتضاها وعينا وما هو قادر عليه. فلم تَعُد الجامعات تبيع نتائج أبحاثها، وإنما تبيع علاماتها التجارية تحديدًا.

ومع الأسف الجامعات صارت شريكًا في عملية التلاعب بالزبائن، حيث أضحت أداة أساسية لشركات الضغط السياسي وهو ما ينتهي بهذه المؤسسات الأكاديمية إلى إنتاج الخبراء ذوي التخصص الضيق الذين يخدمون السوق، لا خلق العلماء ذوي الأفق الواسع القادر على مواجهة المشاكل الحياتية. فشعار المرحلة صار "الإنتاج من أجل الاستخدام"، ومن توابعها أن المواطنين والمفكرين والعلماء لم يروا في أنفسهم سوى تروس في آلة كبرى.

المأزق التي وقعت فيها الأكاديميات جعلت من البعض يوجه سهام النقد لها، على نحو ما فعل ألكسندر أفونسو، الذي لم يتردد في مقارنة الأنماط المؤسسية للجامعة بتلك الخاصة بالجريمة المنظمة، وهو ما حدا به لأن يعنون بحثه هكذا "كيف تشبه الأكاديميا عصابة المُخدرات" حيث يقارن بين الدخول المتفاوتة بشكل كبير في شبكات التهريب، ونظام التعويض المالي السّائد في الجامعة.

الأميّون الجدد

يكتسبُ خطاب التفاهة لغة خاصّة به، خاصة أولئك الذين يجدون أنفسهم وسطًا في معركة إبداء الرأي، وهنا تصبح السّلبيّة قيمة، ومع الأسف نظام التفاهة يحتاجُ إلى مناصرين له، ولهذا يحتاج إلى خطاب إغواء أو حشد، ولهذا الخطاب مواصفات معينة، كأنْ يعمد إلى القص أسلوبًا، إلى جانب العقلانية والعاطفة، وكنوع من الإغواء والحشد يلجأ رجال الدين إلى أسلوب القصّ. أما الأداة الثانية المعتمدة في خطاب التفاهة فهي اللغة الخشبية، وتتمثّل في النطق بتحصيل الحاصل الذي يقوم على الحشو أو مجرد التكرار بألفاظ مختلفة.

النص كاملا على الموقع الإلكتروني

ألان دونو في جوار نماذج فنية لما يعتبره التفاهة في الصور

رف الكتب

أسطورة الشاعر المجنون

من 1807 إلى 1843، كان سكان مدينة فرتنبورغ يلمحون متجولا فريدا يغادر بيتا بني على برج سور قديم، وتعوّدوا على رؤيته وهو يمشي متمتمًا بأبيات من الشعر الفرنسي واليوناني والألماني. هذا الرجل يدعى فريدريخهولدرلين، مؤلف رواية «هيبريون». هاجر إلى فرنسا عام 1801، ونشر إثر عودته ترجمات لسفوكليس أثارت سخرية غوته وشيلر، بسبب تصرفه في الأبيات الأصلية. ولما أدركت أمه أنه لن يكون قسّا أودعته مصحة نفسية طيلة أشهر. من هنا نشأت الأسطورة الرومانسية للشاعر المجنون، التي يضعها الكاتب والناشر الفرنسي بونوا شانتر موضع شك، إذ يتساءل ما إذا كان هذا الشاعر الكبير يريد قول شيء آخر، في النصف الثاني من حياته التي قضاها في الاستماع إلى جرس توبينغن.

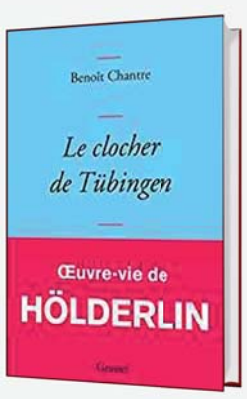

فهولدرلين، كآخر شعلة في التقاليد الصوفية التي أضاءت الليل الأوروبي وأول فنان مختل المدارك في ألمانيا، لا يمكن أن يُنصَت إليه في تلك المرحلة. ومن ثَمّ يدعو شانتر إلى إعادة قراءته كشاهد على نهاية عالم، والاستماع إلى درس صلابته وعناده.

خداع الرأسمالية

مستقبلنا سيكون من الثراء ما يجعلنا لا نهتم للديون المتراكمة، لأنها سوف تمحى بفضل الإنجازات القادمة. وإذا كان الإنسان كائنا مضرًا أفسد الكوكب، فإنه سوف يتمكن بسهولة من إعادة بناء نفسه ومضاعفتها بفضل معجزات التكنولوجيا. تلك وعود الرأسمالية المضاربة، كما يشرح دوافعها وغاياتها بيير إيف غوميز أستاذ التصرف بالمعهد الأعلى للتسويق بليون في كتاب «روح الخداع الرأسمالية»، فقد لاحظ أن هذه الروح قد اجتاحت المجال المالي ثم الاقتصاد الحقيقي.

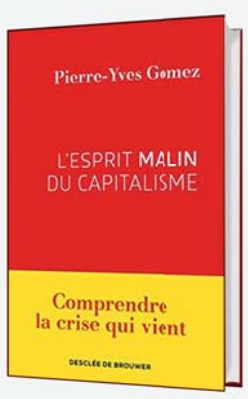

وأخيرا المجتمع برمته، فقلبت رأسا على عقب العمل والاستهلاك والشركات والذهنيات والمعيش اليومي لتنتج مجتمعا ماديا محموما قانعا بمصيره. وفي كل أزمة، يدعونا إلى عقد الأمل في مستقبل ينقذنا، مع التأكيد في الوقت ذاته على أن الإنسان سيقصى إن لم يتكيف.

ليفي ستراوس العالِم المتعدد

بالتعاون مع اليونسكو، صدر كتاب «أن نفهم كلود ليفي ستروس» بمناسبة الذكرى العاشرة لرحيله، وقد ساهم في تأليفه عدد من كبار علماء الأنثروبولوجيا المعاصرة تحت إشراف نيكولا جورني.

والمعلوم أن ليفي ستراوس (1909–2009) أنجز ما لم ينجزه إلا القليل من العلماء، فبالإضافة إلى مسيرته كإثنولوجي متخصص في القارتين الأمريكيتين، كان له حضور بارز ككاتب، ودور في اندلاع ثورة فكرية هي البنيوية.

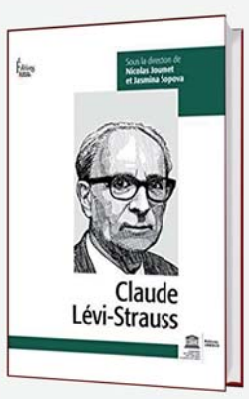

لم يكتف المساهمون بهذا الدور، بل أخضعوا إنجازه للنقد، لفهم اشتغاله على القرابة والأساطير وأنماط التفكير، وهو ما عبر عنه هو نفسه لتفسير دوافع استكشافه القبائل في أماكن قصية: «ما نبحث عنه بقربنا أو على مسافة آلاف الكيلومترات وسائلُ إضافية لنفهم كيف يعمل الفكر الإنساني».

على ضوء هذه القناعة الأنثروبولوجية، التي تبين أن القريب يختفي في البعيد، تقاس آثاره وانتشارها، كما يقاس تأكيده على مخاطر الحداثة على الطبيعة، حسبما شاهد وعاين.